التصوف بين التأصيلية والتأثيرية

الباحث:بن صافي سعيد جامعة وهران -2-

ملخص:

اغتراب التصوف يتمثل في تلك النظرة التصنيفية القائمة على أساس تكريس الفكر المركزي الأوروبي أو النظرة النصية القائمة على الفهم الفقهي الضيق أما استمراريته فتتمثل في التوارث الذي حمل لواءه الحكماء المتألهون بدءا من أفلوطين وانتهاء إلى الأفلاطونية المحدثة والذي يأخذ طابع ثقافة وملة ولغة كل امة وأكمل صورة جدد فيها التصوف باعتباره الحكمة هي الديانة الإسلامية.

الكلمات المفتاحية:

اغتراب، التصوف، استمرارية، الحكماء المتألهون ، التصنيفية، النصية، الحكمة، تكريس

مقدمة :

تختلف المواقف من التصوف كممارسة وعرفان بين نزعة تأصيلية تقف موقفا دفاعيا شبيها بالجدل الكلامي القائم على المحاججة والانتصار على الخصم، ونزعة عدمية تنفي أصالته بممارسة نصية ظاهرتية، وبين تأويلية تستثمر شتى المناهج التي أنتجتها عقلانية الغرب الحداثي المتحرر من كل تفسير غيبي ميتافيزيقي قائم على أسبقية المعارف الروحية والقلبية على المعارف العقلية الذهنية.

وهذا الزخم من الاختلاف جعل التصوف كسبيل للعرفان وطريق للوصول إلى الحقيقة يحيا شكلا من الاغتراب وذلك بإعادة صياغته صياغة أفقدته هويته وماهيته *حيث تم اعتباره فرعا من الفلسفة الاشراقية وهذا لضمان مركزية الفكر الأوربي حسب تعبير الجابري وهذا اعتقادا منهم أي الأوروبيين أنهم الورثة المباشرين للفكر اليوناني (والأغرب في هذا الصدد هو إن الأوربيين يعتبرون أنفسهم كأنهم الورثة المباشرين للحضارة اليونانية القديمة)[1]

وهذا يؤول في النهاية إلى نفي التجديد والابتكار وما جاء به المتصوفة ما هو إلا نسخ لما قال به الفلاسفة وحكماء اليونان من أفلاطون،فيثاغورس،أفلاطون،وامبوذوكليس وهذا اعتمادا على المنهج الفيل ولوجي الذي اثبت عجزه في ميادين المعرفة(وإذا كانت توجد بلا مراء تشابهات بين التصوف الإسلامي والمذاهب المماثلة في الملل الأخرى فتفسير هذا لا يحتاج إلى اللجوء إلى افتراض تفسيرات وهمية وذلك لان الحقيقة واحدة وبالتالي فجميع المذاهب التراثية القويمة متطابقة في جوهرها مهما كان تنوع الإشكال التي تكتسيها)[2]

وهناك من يعتبر المعارف والعلوم التي يدعيها المتصوفة ضرب من السرد الأسطوري المنافي للعقل والعقلانية كما هو الحال عند الجابري الذي التمس له أصلا هرمسيا قائما على الأسطورة الفلكية .

كما إن تبني فكرة التطور الدروينية وتطبيقها على تاريخ التصوف الذي بدأساذجا قائما على الممارسة العملية البعيدة عن كل تأمل فكري فلسفي منتهيا إلى صياغة نظريات فلسفية عند الاتصال بالفكر اليوناني

وهذا ما غيب الوحدة السارية لجميع الأطوار التي عرفها التصوف ، فبالعودة إلى طبقات الجنيد الذين يصنفون ضمن التصوف السني والمتأخرين ضمن التصوف الفلسفي نجد أن كلاهما يتفقان على ضرورة التزام الشريعة وتزكية النفوس من

الارجاس والتحرر من ربقة الاغيار وذلك بصدق التوجه إلى الله من خلال الزهد والمراقبة وصفاء الإسرار وعلو الهمة

فمن أسباب الاغتراب التي مر بها التصوف قديما والاقتصار على مجرد المناهج اللغوية والمنطقية الفقهية المعروفة عند علماء الظاهر وأساتذة الشريعة (والحق إنالتصوف عربي والقران عربي وهو الذي يوجد فيه مبادئه مباشرة على انه للعثور على هذه المبادئ لابد أن يفهم القران وتفسير وفق الحقائق العرفانية التي تشكل معناه العميق)[3]

إضافة إلى النزعة التصنيفية للتصوف إلى نسبي وفلسفي وهذا تأثرا بالمدرسة الاستشراقية وان لم يرد هذا التصنيف عند قدماء المتصوفة والمتأخرين منهم كالجنيد وعبد الرزاق القاشاني وزروق الفاسي وإقامة فروق مصطنعة من إنتاج الخيال كقول صاحب هذا النص (الاختلاف إنما يكمن في إن رواد التصوف الفلسفي يعمدون إلى إنتاج خطاب خاص تتداخل فيه أذواقهم الصوفية بأنظارهم العقلية الفلسفية خطابا له طابع ثيوسوفي)[4]

وتفسير هذا الخلط يعود إلى تقلص التربية الروحية والموروثة عن الأنبياء واختزلها إلى نظريات فلسفية (علوم الحكم الادريسية استمرت متوارثة عند الأمم بواسطة الحكماء المتألهين.أحيانا كان بعدها الروحاني يتقلص بانقباض من التربية الروحية العملية التي شرعها الأنبياء فتحول إلى نظريات فلسفية يغلب عليها تصرف الفكر والنظر العقلي)[5]

إن هذا لا يلغي دور العقل بقدر ما يحدد مجال اختصاصه وهذا ما يحاول دعاة العقلانية الترويج دون تمحيص لان للعقل طورا لا يتجاوزه (وهذا الحد هو نقطة انتهاء مجال العقل ليتحول من أداة فعالة إلى أداة منفعلة مسايرة للكشف نحو المطلق فتتخلص من قواعد وقوانين العقل كما تتخلص الأرواح من الأبدان وكل

نقص يعيق إلى الكمال وهذا ما قصده ابن عربي بطيران الأرواح من المواد والأعناق من الأجساد).

بل إن موقف العقلانيين يتجاوز الحدود محاولة المعرفة إلى تجاهل هذا الجانب الروحاني (بل يصل بهم الحال إلى التبجح لجهلهم لهذه الأمور كأنه في أعينهم من علامات السمو يفترض أن ثقافتهم أتاحته لهم)[6]

هذه بعض الأضواء على الاغتراب الذي عاشته وتعيشه التربية الروحية أو العرفان وبعيدا عن الدراسات التي تقام محاولة منها لفهم الفروقات في الديانات والملل التراثية القائم على منهج المقارنة والتأثير الذي قيل عنه (ولذا يبقى منهج التأثير والتأثر وقانون العلة المعلول منهجا قاصرا في الكشف عن الحقيقة في أوسع تجلياتها لأنه يفرض على الظاهرة الصوفية شكل قبلي وتعسقي ، منهجا مستوحى من منظور كلاسيكي لعلوم الطبيعة والذي يحدد الظاهرة بسبب وحيد) [7].

استمرارية الحكمة:

هل مصدر الحكمة الوحي أم العقل المتجلي فيما نقل إلينا من فلسفات وتحليل للإجابة عن هذا السؤال لا بد من تحديد مفهوم الحكمة عند من يمثلون التصوف القائم على الحكمة أي المدرسة الاكبرية(والحكيم الكامل عند الشيخ هو المتمكن نظريا وعمليا من العلوم الأربعة الإلهي والرياضي والمنطقي والطبيعي لمعرفة موازينها)[8]والموازين تتمثل في موازين الحروف يتمثل في قدر كيفي يحدد طبيعته وكمي يتمثل في قيم إعدادها- وفي معناها الواسع تشمل شتى العلوم.(في تناسق بديع للغاية جميع العلوم والفنون من الرياضيات والكيمياء والطب والفلك والنحو والصرف والموسيقى والشعر إلى الخط والفن المعماري ومختلف الحرف تتناسق كلها كمظاهر مختلفة للعلم الأصلي الذي صيغت منه واليه تؤول "هو علم التوحيد"[9]

كما انه من معاني الحكمة هو معرفة المناسبات بين الأشياء والتحقق بالحكمة من الجانب العلمي والروحي."أما جانبها العملي التفصيلي فيتمثل في كيمياء السلوك

العرفاني بالفكر والنظر عند الفيلسوف والذكر والاستقامة الشرعية عند التابع للرسول وهو الأكمل والأسعد والأعلى عند الشيخ"[10] أي ابن عربي والفرق بين المعرفة التي سيصل إليها الفيلسوف وتلك التي وصل إليها الصوفي هو عدم قبول الشبه القادحة فيه أي معرفة شهودية عينية ترى الحقيقة على ما هي عليه "وما يجب لكل شيء " التدقيق هو المقام الذي لا يقبل الشبه القادحة فيه وهو معرفة ما يجب لكل شيء من الحق الذي تطلبه ذاته فيوفيه ذلك علما"[11]

والفرق بين المسلكين والمنهجين والتصورين هو أن الصوفي يرى أن الإنسان والعالم ذاته حجاب ووسيلة للمعرفة في حين يرى الفيلسوف أن العقل هو وسيلة المعرفة "إن كل ما سوى الحق حجاب وان اكبر حجاب الإنسان ذاته فينبغي أن يسعى الإنسان لإزالة هذا الحجاب بالفناء عن صفاته البشرية والتشبه بالله والتحلي بالصفات الإلهية فحينئذ يحق الوصول إلى رفع الحجاب"[12]

أي المتألهين وينبغي التفرقة بين الفلاسفة ذوي النزعة العقلية الصرفة والحكماء مزجوا بين النزعتين كافلاطون وافلاطين.أما من ناحية المنهج فالعالم يستدل بالعالم والمخلوقات على الخالق أما العارف يتبع الطريق النازل أي يستدل على العالم بوجود الله إذ لا وجود حقيقي لها إي اعتباري وهذا ما نجد صورته فيما يسمى بوحدة الوجود".

وهذا المنهج نجده في التراثيات الروحية للشرق التي ترى عدم التعلق بالأشياء لأنها نفسها عدم وعند التصوف الإسلامي عدم الالتفات إلى ثمرات العمل لأنه من خلق الله وليس الإنسان وفي الكتب الهندوسية المقدسة العمل بلا شهوة والتحرر من الكثرة وحسب التعاليم الطاوية السكينة والسلام والحضور الإلهي والتحقق بالوحدة أي إن هناك توافقا بين المناهج التراثية كما يقولrené Guenon"وإذن فهناك تحضير للحكمة اسمي من الفلسفة وهو لا يلجا إلى العقل وإنما إلى النفس والروح وهو ما يمكنه تسميته بالتحضير الباطني ويبدو وانه كان الطابع المميز لأعلى درجات مدرسة فيتاغورس[13]وقد امتد أثره من خلال مدرسة أفلاطون إلى أن وصل إلى الأفلاطونية

الحديثة" والمعروف أن الشرق كان يتمتع بهذه الثقافة الروحية التي تعترف على الروح والنفس لطريقة المعرفة وأثرت على الفلسفة اليونانية"والتعليم الباطني كان معروفا في بلدان الشرق قبل انتشاره في اليونان حيث أطلق عليه علوم الأسرار والفلاسفة الأوائل لا سيما فيتاغورس ربطوا تعليمهم بهذه العلوم ..حيث انه تعبير جديد لمفاهيم قديمة"[14]

كما أن الاستمرارية لم تقتصر على الشرق وإنما في اروبا العصور الوسطى"ويبدو إن هذا التعليم كان موجودا كذلك في الغرب خلال العصر الوسيط ولو انه أمسى اليوم مفقودا تماما"[15]

حين نجد توما الاكوينييرى إن المعارف موجودة داخل أنفسنا وليس خارجها وهذا ما عبر عنه الحكماء اليونان"كل ما تعلمه الإنسان موجود سبقا في قرار نفسه" [16]والتجارب مساعدة على الوعي والتذكر فقط أي أن المعرفة جوهر وعي الإنسان يوصله إلى المعرفة الحقيقة وهذا ما أشارت إليه جميع الملل والثقافات الروحانية.وسأكتفي بإيراد نص من التاسوعاتيبين فكرة الاستمرارية البعيدة عن فكرة التأثير والتأثر الملفق يقول عن عدم جواز كشف الأسرار الدينية لغير أهلها كما يقول لذلك الصوفية المسلمون ومسيحيو القرون الوسطى "وهذا ما تعنيه الوصية في الأسرار الدينية بان لاتكشف تلك الأسرار لغير ،فمادام السر الديني أمرا غير مكشوف منعت الوصية من كشفه لغير الذي أسعده الحظ فيشاهده هو بذاته" [17].

فما نراه نحن قائم على العقل والاقتباس هو في حقيقة الأمر ميراث نبوي للحكمة الإلهية المتجددة عبر العصور"لان العلوم الادريسية توارثتها الأمم بعد رفعه إلى إن ظهرت وازدهرت في الحضارات الكلدانية والعربية القديمة ثم المصرية والإسرائيلية واليونانية وأخيرا الإسلامية"[18]

وهذه العلوم لم تكن مفصلة"كانت مجملة في قواعد ومبادئ أصولية عامة قوالبها ثابتة ولا تصبح حية إلا بتجديدها وفق شريعة ولغة وملة الأمة المعنية وقد تم هذا بأكمل صورة عند حكماء المسلمين"[19].

هذه الاستمرارية كانت لها انزياحات في مجال المعرفة وحقول الفلسفة فيما يتعلق بالتصوف الإسلامي كصورة نهائية تبلورت فيها الحكمة الإلهية التي أشار إليها القران الكريم"ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولي الألباب"وصاحب اللب هو الذي يصل إلى عمق وجوهر الأشياء ليدرك الترابط والمناسبة .

ففي القرون الوسطى تأثر دانتي صاحب الكوميديا الإلهية بالشيخ الأكبر ابن عربي حيث تحدث عن جهنم وطبقاتها وهذا ما أثبته المستشرق الاسباني بلاثيوس.

وموضوع التصوف اثأر اهتمام المستشرقين منذ العصور الوسطى"رامون لول"(one veille)الذي هو صاحب الدراسة الأولى التي لفتت نظر رابعة العدوية ناسكة القرن 8م انتهاء إلى ارنولدتيلسون(1868-1945) لويس ماسنيون(1883-1962)هنري كوربان(1903-1978).

وكانت هذه الإثارة إما بمثابة تحدي معرفي دفعهم و إما إلى محاولة فهم التصوف إلى اعادة صياغته مما يخدم الايديولوجية الاستشرافية التي عملت على إعادة صياغة الشرق وفق مفاهيم تعيد للغرب توازنه الذاتي كما عبر عن ذلك المفكر ادوارد سعيد في كتابه"الاستشراق واهم مقولة مكرسة في الفكر الاستشراقي"إن التصوف نبتة غريبة في صحراء الإسلام"وكان مبعث هذه الفكرة تأكيد تأثير المسيحية على الإسلام وما يسمى عندهم بالنسك ولا يعني التربية الروحية بمعناها العميق لان صاحبه لا يملك رؤية وغاية أي إن اتصال المستشرقين بالتراث الصوفي صحح إلى حد ما النظرة السلبية للإسلام التي سادت في القرون

الوسطى من انه دين عنف وقتالوهذا كرد فعل لانتشار الإسلام في اروبا فجهود المستشرقين كانت بمثابة مد جسر التواصل والحوار لإدراك إن هناك وحدة بين جميع الملل والروحانيات.

وان كانت النظرة فيها نوع من القصور المعرفي حين رأوا أن النظرية الصوفية لم تكن وليدة الإسلام وهذا نوع من الغربة التي عاشها التصوف في الفكر الاستشراقي.

كما أن النظرية الصوفية عمقت نزعة البحث لدى الكثير من الفلاسفة" كسبينوزا "في حديثه عن وحدة الوجود وان كانت له تأثيرات يهودية في القبالة أي علم الإسرار عند اليهود.ولا تنسى تأثير المدرسة الأكبرية على الفكر الغربي الذي حاول أن يثبت صحة للثالوث المسيحي من خلال الدراسة وكان يمثل المسيحية في روحها وجوهرها .

إن الفكر الأوربي الحديث وجد العزاء في دراسة التصوف بعدما وقعت القطيعة بين الغرب ومعارفه الروحية وكأنه يبحث عن التوازن الروحي الذي فقده وهذا ما نلمسه عند هنري كوربان عند درس التصوف الفارسي أو الفلسفة الاشراقية بدءا من والعطار وكل المتصوفة الذين كان من أصول فارسية وهذا بعد الحرب العالمية والأولى والثانية.

إما العصر الحديث فيبدو أن العقلانية أضفت مذهبا ودينا وهذا ما جعل فجوة التواصل بين الشرق والغرب تتسع وهذا لانتشار النزعة المادية البعيدة عن المعارف الروحية يقول :René Guenon"أن الشرق يجب أن يحتفظ بعلمه الخاص فانه اصدق وأتم وأوسع استيعابا للوجود بدلا من تصنيف نزعته في عالم المادة فقط"

وان كل معرفة قد أعطيت للإنسان في البدء ثم أخذت تختفي تدريجيا بتوالي العصور وتنتقل من عالم الروح إلى عالم المادة"

وما يمكن الخلوص إليه هو أن مستندالتأثير الفلسفي للثقافات ما هي إلا استمرارية للموروث النبوي الإدريسي الذي انتهى اكتماله عند حكماء المسلمين وان النزعة التصنيفية ما هي إلا إلية دفاعية للمحافظة على التوازن العقلي لاتجاه العقلنة وان التأويل الصوفي القائم على الرمز والرمزية يختلف عن التأويل الحداثي الذي لا يعدو عملية إسقاطيه لخلفية دينية وإيديولوجية.

فالتصوف كتجربة عرفتها الملل والأديان وان اختلفت إشكاله مرجعية روحية وثقافية وحضارية للخروج من المأزق التأزمي الذي يحياه الإنسان المعاصر من فقدان القيم الروحية وسيادة القيم المادية والشخصانية ونزعة كراهية الأخر.فالمطلوب ليس وضعه في متحف الأفكار أو مأسسته أو صياغته في نسق إيديولوجي إنما إدماجه كتجربة روحية في حياتنا الاجتماعية والثقافية. تعيد للإنسان قيمته الحقيقية وتزوده بنظرة عميقة عن الوجود والله والغاية من الوجود الإنساني.

المراجع

- التصوف الإسلامي المقارن وتأثير الحضارة الإسلامية في الغرب ترجمة عبد الباقي مفتاح عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع اربد الأردن 2013

- التصوف الأندلسي أسسه النظرية واهم مدارسه دار الثقافة للنشر التوزيع دار البيضاء ط2005.1

- عبدالباقي مفتاح بحوث حول مفاهيم وكتب الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي تقديم عبد الإله عرفة دار الكتب العلمية بيروت ط2011.1

- موسوعات افلاطين ترجمة فريد جبر- مراجعة جرار جهامي وسميح دوغيم،مكتبة لبنان ناشرون ط1 1967

- نشأة التصوف في المغرب الإسلامي الوسيط (الجزائري قمة الثقافة 207(حميدي خميسي)

- نظرات في التربية الروحية عبد الباقي مفتاح دار الكتب الحديثة اربد الأردن 2014

[1]- GuenonRene ، التصوف الاسلامي المقارن وتاثير الحضارة الاسلامية في الغرب ترجمة عبد الباقي مفتاح عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع اربد الاردن 2013 ص07.

[2]- ReneGUENONالتصوف الاسلامي المقارن وتاثير الحضارة الاسلامية في الغرب ترجمة عبد الباقي مفتاح عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع اربد الاردن 2013 ص21.

[3]- التصوف الاسلامي المقارن ص 22.

[4]- معمد العدلوني الادريسي –التصوف الاندلسي اسسه النظرية واهم مدرسه ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، دار البيضاء – ط1 2006 .ص16.

[5]- مفتاح عبد الباقي ،بحوث حول كتب لابن العربي .ص 160.

[6]- يحي عبد الواحد ،نظرات في التربية الروحية ،عبد الباقي مفتاح ،دار الكتب الحديثة .ص3 ،اربد ، الاردن ،2014 .ص207.

[7]- معمد العدلوني الادريسي –التصوف الاندلسي اسسه النظرية واهم مدارسه ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، دار البيضاء –ط1 2006 .ص207.

[8]- بحوث حول كتب الشيخ الاكبر عبد الباقي مفتاح ص85.

[9]- المرجع نفسه، ص85.

[10]- المرجع نفسه، ص85.

[11]- المرجع نفسه، ص85.

[12]- حميدي خميسي نشأة التصوف في المغرب الاسلامي الوسيط الجزائر دار الثقافة 2007 ص131.

[13]- نظرات في التربية الروحية عبد الواحد يحي ترجمة عبد الباقي مفتاح عالم الكتب الحديثة اربد الاردن 2014 ص05 .

[14]- المرجع نفسه، ص19 .

[15]- نظرات في التربية الروحية 124.

[16]- المرجع نفسه، ص122.

[17]- تاسوعات افلاطين، ترجمة فريد جبر، جيرارد جيهامي و سميح دغيم، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت ، ط1، 1967 ص.700

[18]- عبد الباقي مفتاح ، بحوث حول كتب الشيخ الأكبر، ص 86.

[19]- المرجع نفسه، ص 86.